سورةُ الفَجْرِ

الجزء الثاني

من الآية (15) إلى الآية (30)

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿15﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿16﴾ كَلَّا ۖ بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿17﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿18﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿19﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿20﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿21﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿22﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿23﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿24﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿25﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿26﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿27﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿28﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿29﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿30﴾

المعنى الإجمالي الآية (1) إلى الآية (14):

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالفَجْرِ المعروفِ، وبلَيالٍ عَشْرٍ، وهي عَشْرُ ذي الحِجَّةِ، وبالشَّفعِ والوَتْرِ، وباللَّيلِ وَقتَ سَيْرِه وسَرَيانِه، فهل في قَسَمِ اللهِ بتلك الأشياءِ مَقنَعٌ وكِفايةٌ لِذي عَقلٍ ولُبٍّ؛ فيَنزَجِرَ ويَرتَدِعَ؟

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ سبحانَه وتعالى عمَّا أنزله بالمكذِّبينَ مِن العذابِ، فيقولُ: ألَمْ تَعلَمْ -يا محمَّدُ- كيف انتَقَم رَبُّك مِن قَبيلةِ عادٍ؛ إرَمَ ذاتِ الأعمدةِ، الَّتي لم يُخلَقْ ما يُماثِلُها في سائرِ البُلدانِ؟ وكيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن قَبيلةِ ثمودَ الَّذين شَقُّوا الجِبالَ في وادِيهم، وصَنَعوا فيها بُيوتًا؟ وكيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن فِرعَونَ صاحِبِ الأوتادِ؟ هؤلاء الذَّين سَلَف ذِكْرُهم مِن عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ قد تجاوَزوا حَدَّهم في الظُّلمِ والطُّغيانِ، فأكثَروا في البِلادِ العمَلَ بالكُفْرِ والعِصيانِ؛ فأنزَلَ رَبُّك عليهم -يا محمَّدُ- عَذابَه الشَّديدَ؛ فهَلَكوا جَميعًا، إنَّ رَبَّك مُراقِبٌ لأعمالِ الطَّاغينَ المفسِدينَ في الدُّنيا، وسيُهلِكُهم.

في المقطع السابق كان السياق عن الأمم السابقة (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ) وكيف أعطاهم الله سبحانه تعالى لهؤلاء الأقوام السلطان والعلم والقوة والمال فكفروا بأنعم الله (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ

فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) فكانت العاقبة أن أهلكهم الله سبحانه وتعالى فدل ذلك أن العطاء في هذا المقطع ليس دليلا على الرضى وليس دليلا على الكرامة وليس دليلا على محبة الله وأن الحرمان أصلا ليس دليلا على السخط والإهانة من الله سبحانه وتعالى فهذا ما يجب أن نعتقده، ونؤمن به، أن المال والسلطان والقوة لا تعدل في ميزان الله شيء، وليست دليل عن الكرامة عند الله -Y- وليس عدمها دليل على الإهانة ولو كان العطاء الدنيوي دليلا على الإكرام الرباني ما عاش محمد -ρ- عيشة الكفاف فقد مات عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودي وهو أشرف الخلق وأحب الخلق إلى الله -Y-.

هذا يقينك حتى لا تقعي في فتن الدنيا من الدين والعلم، والجاه، والسلطان، والمال، بل تحمي نفسك من الطغيان بأن تشتغلي بما خلقتي له وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، "رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَما فِيهَا "العطاء الديني هو الكرامة الحقيقة الموصل لدار الكرامة، وادخلي جنتي، هذه الطاعات والعبادات ، الصلوات صلاة الفجر وغيرها من الفروض والسنن، سواء كانت شفع أو وتر، أو أيام عظيمة مثل يوم عرفة، أو يوم النحر، هنا سر النجاة من الفتن نأوي لكهف العبادة طاعة الرحمن، ونعلم أن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا لمن أحب.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ﴿15﴾

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) أي: فأمَّا الإنسانُ إذا اختبَرَه رَبُّه بالغِنى، فأكرَمَه بسَعةِ الرِّزقِ، وجعَلَه مُنعَّمًا مُترفًا؛ فيقولُ جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أكرَمَني بذلك؛ ظنًّا منه أنَّ إكرامَ اللهِ في الدُّنيا وإنعامَه عليه دليلٌ على كرامتِه عِندَه. موسوعة التفسير

قال ابنُ عطيَّة: (ذَكَر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما كانت قُرَيشٌ تقولُه تَستَدِلُّ به على إكرامِ اللهِ تعالى وإهانتِه لعَبدِه؛ وذلك أنَّهم كانوا يَرونَ أنَّ مَن عندَه الغِنى والثَّروةُ والأولادُ فهو المكرَمُ، وبضِدِّه المهانُ، ومِن حيثُ كان هذا المقطَعُ غالِبًا على كثيرينَ مِنَ الكُفَّارِ جاء التَّوبيخُ في هذه الآيةِ لاسمِ الجِنسِ؛ إذ يقَعُ بعضُ المؤمِنينَ في شَيءٍ مِن هذا المنزَعِ).

ذمٌّ لِمَن يَقولُ: رَبِّي أَكْرَمَنِ؛ لأنَّه يقولُ ذلك مُفتخِرًا به على غيرِه، ومُستدِلًّا به على عُلوِّ مَنزلتِه في الآخرةِ، ومُعتقِدًا استحقاقَ ذلك على ربِّه، وأمَّا إذا قاله على وَجْهِ الشُّكرِ، والتَّحدُّثِ بنِعمةِ اللهِ تعالى، فليس بمَذمومٍ، بلْ ممدوحٌ. (فتح الرحمن) للأنصاري

قال السعدي: (يخبِرُ تعالى عن طبيعةِ الإنسانِ مِن حيثُ هو، وأنَّه جاهِلٌ ظالِمٌ، لا عِلْمَ له بالعواقِبِ).

قال الرازي: أنَّ المتنعِّمَ لا ينبغي أن يَغفُلَ عن العاقبةِ؛ فالأمورُ بخواتيمِها، والفقيرُ والمحتاجُ لا ينبغي أن يَغفُلَ عمَّا لله عليه مِن النِّعَمِ الَّتي لا حَدَّ لها؛ مِن سلامةِ البَدَنِ والعَقلِ والدِّينِ، ودَفعِ الآفاتِ والآلامِ الَّتي لا حَدَّ لها ولا حَصْرَ؛ فلا ينبغي أن يقضيَ على نَفْسِه بالإهانةِ مُطلقًا.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ ﴿16﴾

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) أي: وأمَّا إذا اختبَرَ اللهُ الإنسانَ بالفَقْرِ، فضَيَّقَ عليه رِزْقَه؛ فيَقولُ مُتضَجِّرًا جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أذَلَّني بذلك. موسوعة التفسير

إذا هذه الآية تبين لنا حقيقة في غاية الأهمية هي أن الحياة ابتلاء بحلوها ومرها بعطائها ومنعها، الله سبحانه و تعالى- وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً – يبتلي بالخير والشر ويبتلي بالمنع والعطاء، أغلب الناس يظنون أن البلاء فقط بالضراء بالمرض، بنقص الأموال، بنقص الولد، بالمصائب، بالهم وبالغم، هذا ليس صحيح، فالله -Y- يبتلي بالسراء كما يبتلي بالضراء، وانتبهي قد تكون فتنة السراء أخطر على الإنسان من فتنة الضراء، قد يبتلى الإنسان بالمال فلا يعطي الحقوق فيكون وقع في معصية لها تطهير مؤلم، فيفشل في هذا الابتلاء أو يعطى الصحة فيستعين بها على معاصي تغضب الله ... وغير ذلك ، يقول أحد الصالحين ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

وقد يكون العطاء استدراج يعطي للظالم ليزداد إثما فإذا لم يرجع وإذا لم يتوب أخذه الله سبحانه وتعالى أخذ عزيز مقتدر.

﴿كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ ﴿17﴾

(كَلَّا) أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّ إغناءَه إكرامٌ له مِنَ اللهِ، وإفقارَه إهانةٌ؛ فاللهُ يُغْني من يَشاءُ ولو كان كافِرًا، ويُفقِرُ مَن يشاءُ ولو كان مُؤمِنًا؛ ابتِلاءً منه لعبادِه بالغِنى والفَقْرِ بمُقتَضى حِكمتِه فيهم، وهو إنَّما يُكرِمُ بطاعتِه، ويُهينُ بمَعصيتِه. موسوعة التفسير

قال ابن تيمية: قال: «كَلَّا»، وهذا فيه زجرٌ وتنبيهٌ؛ زجرٌ عن مِثْلِ هذا القَولِ، وتنبيهٌ على ما يُخبَرُ به ويُؤمَرُ به بَعْدَه؛ وذلك أنَّه ليس كلُّ مَن حَصَلَ له نِعَمٌ دُنيويةٌ تُعَدُّ كرامةً يكونُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مُكرِمًا له بها، ولا كلُّ مَن قُدِرَ عليه ذلك يكونُ مُهِينًا له بذلك، بل هو سُبحانَه يَبتلي عبدَه بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ؛ فقد يُعْطي النِّعَمَ الدُّنيويَّةَ لِمَن لا يُحِبُّه ولا هو كَريمٌ عندَه؛ لِيَستدرِجَه بذلك، وقد يَحمي منها مَن يُحِبُّه ويُواليه؛ لئلَّا تَنْقُصَ بذلك مَرتبتُه عندَه، أو يَقَعَ بسَبَبِها فيما يَكرَهُه منه.

قال -ρ-: "يا مَعْشَرَ الفقراءِ ! أَلَا أُبَشِّرُكم ؟ إنَّ فقراءَ المؤمنينَ يَدْخُلُونَ الجنةَ قبلَ أغنيائِهم بنِصْفِ يومٍ : خَمْسِمَائةِ عامٍ" صحيح الجامع

قد يمنع المؤمن من الدنيا ويحميه منها كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب الذي يضره حتى يشفى، قال -ρ-: "إذا أحبَّ اللَّهُ عَبدًا حماهُ الدُّنيا كَما يظلُّ أحدُكُم يَحمي سَقيمَهُ الماءَ" صحيح الترمذي

فالله سبحانه و تعالى يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب للمسلم والكافر ولا يعطي الآخرة إلا لمن يحب ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافر شربة ماء.

قال ابن عثيمين: إشارةٌ إلى أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أنْ يَتَبَصَّرَ، فيَقولَ مثلًا: لماذا أعطاني اللهُ المالَ؟ ماذا يريدُ منِّي؟ يريدُ منِّي أنْ أشكرَ، لماذا ابتلاني اللهُ بالفقرِ، بالمرضِ وما أَشْبَهَ ذلك؟ يريدُ منِّي أنْ أصبرَ. فلْيَكُنْ مُحاسِبًا لنَفْسِه؛ حتَّى لا يكونَ مِثْلَ حالِ الإنسانِ المبنيَّةِ على الجَهلِ والظُّلمِ؛ ولهذا قال تعالى: كَلَّا يعني: لم

يُعْطِك ما أعطاك إكرامًا لك لأنَّك مُستَحِقٌّ، ولكنَّه تَفَضُّلٌ منه، ولم يُهِنْك حينَ قَدَرَ عليك رِزْقَه، بل هذا مُقتَضى حِكمتِه وعَدْلِه.

قال ابن باديس: تعليمٌ ألَّا نَنظُرَ إلى ظواهِرِ الأُمورِ دونَ بَواطِنِها، وإلى الجُسْمانيَّاتِ الحِسِّيَّةِ دونَ ما وراءَها مِن مَعانٍ عَقليَّةٍ، بل نَعبُرُ مِنَ الظَّواهِرِ إلى البواطِنِ، وننظُرُ مِنَ المحسوسِ إلى المعقولِ، ونجعَلُ حواسَّنا خادِمةً لعُقولِنا، ونجعَلُ عُقولَنا هي المتصَرِّفةَ الحاكِمةَ بالنَّظَرِ والتَّفكيرِ، وكما في قَولِه تبارك وتعالى: قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ [المائدة: 100] ، فلا يَنظُرُ إلى بَهرجةِ الكَثرةِ، ولكِنْ إلى حقيقةِ وحالةِ الشَّيءِ الكثيرِ، فيَعتَبِرُ بحَسَبِهما، وأنَّه لا يجوزُ أن نغتَرَّ بالمالِ والقُوَّةِ والجاهِ وأنواعِ النَّعيمِ إذا سِيقَت إلينا، فنَحسَبَ أنَّها هي نَفْسُ الكرامةِ الرَّبَّانيَّةِ الَّتي دُعِينا إلى العَمَلِ لنَيْلِها، بل إنَّما نَعُدُّها كذلك إذا كان معها التَّوفيقُ إلى شُكرِها بالقيامِ بحُقوقِها، وصَرْفِها في وُجوهِها، ولا نغتَرَّ بحالةِ الضِّيقِ والعُسْرِ والضَّعفِ، فنَحسَبَ أنَّها إهانةٌ مِنَ اللهِ لصاحِبِها، بل علينا أن ننظُرَ إلى ما معها من صَبرٍ ورجاءٍ وبِرٍّ، أو ضَجَرٍ ويأسٍ وفُجورٍ، فنَعلَمَ حينَئذٍ أنَّها مع الأُولى للتَّمحيصِ والتَّثَبُّتِ، ومع الأخيرةِ للزَّجرِ والعِقابِ بعَدْلٍ وحِكمةٍ مِن أحكَمِ الحاكِمينَ.

قال ابن تيميَّةَ: (بل قد يُوسِّعُ عليه رِزْقَه إملاءً واستِدراجًا، وقد يَقْدِرُ عليه رِزْقَه حمايةً وصِيانةً له، وضِيقُ الرِّزقِ على عَبدٍ مِن أهلِ الدِّينِ قد يكونُ لِما له مِن ذُنوبٍ وخطايا).

كما قال تعالى: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً [الأنبياء: 35] .

وقال سُبحانَه: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ [الحجرات: 13] .

(بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) أي: أنتم -أيُّها النَّاسُ- مَن تَستهينونَ بأمرِ اللهِ فتَعصُونَه، فلا تُكرِمونَ اليتيمَ الَّذي فقَدَ أباه دونَ سِنِّ البُلوغِ؛ فتَسُدُّوا حاجتَه، وتُحسِنوا إليه ولا تَظلِموه شيئًا. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: أنَّ المسكينَ حَظُّه الإطعامُ ودَفْعُ حاجتِه، أمَّا اليتيمُ فالإكرامُ؛ فإنْ كان غنيًّا فإنَّه يُكرِمُه لِيُتْمِه، ولا يُطْعَمُ لِغَناه، وإنْ كان اليتيمُ فقيرًا فإنَّه يُكرَمُ لِيُتمِه ويُطعَمُ لفَقْرِه.

وقال عزَّ وجلَّ: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ [الضحى: 9] .

وقال تبارك وتعالى: فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ [الماعون: 2] .

﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ ﴿18﴾

(وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) أي: ولا يَحُثُّ بَعضُكم بعضًا على إطعامِ المِسكينِ. موسوعة التفسير

أنَّ الفَقرَ والغِنى ابتِلاءٌ مِنَ اللهِ لعَبْدِه؛ فليس كلُّ مَن أعطاه ووسَّعَ عليه فقد أكرَمَه، ولا كُلُّ مَن ضَيَّق عليه وقَتَّرَ عليه الرِّزقَ فقد أهانه، والإكرامُ أن يُكرِمَ العَبدُ بطاعةِ اللهِ ومحبَّتِه ومَعرفتِه، والإهانةُ أن يَسلُبَه ذلك، ولا يَقَعُ التَّفاضُلُ بالغِنى والفَقْرِ، بل بالتَّقوى. بصائر ذوي التمييز

كما قال الله تبارك وتعالى: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ [الإسراء: 26] .

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ ﴿19﴾

(وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا) أي: وتأكُلونَ الميراثَ أكلًا شديدًا لا تَترُكونَ منه شَيئًا، فتأخُذونَ منه نصيبَ غَيرِكم مِنَ النِّساءِ والصِّغارِ. موسوعة التفسير

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ﴿20﴾

(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) أي: وتُحِبُّونَ المالَ حُبًّا كثيرًا مُفرِطًا، فتَحرِصونَ على جَمْعِه واقتنائِه، فلا تُنفِقونَه في الخَيرِ. موسوعة التفسير

قال ابن جزي: هذا ذَمٌّ للحِرْصِ على المالِ وشِدَّةِ الرَّغبةِ فيه.

وقال سُبحانَه: كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [القيامة: 20-21] .

وقال تعالى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الأعلى: 16-17] .

وقال الله سبحانه وتعالى: الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ [الهمزة: 2-3] .

وقال تبارك وتعالى: وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ [العاديات: 8] .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ﴿21﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال ابن عاشور: أنَّه انتِقالٌ مِن تَهديدِهم بعَذابِ الدُّنيا الَّذي في قولِه: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ [الفجر: 6] الآياتِ، إلى الوعيدِ بعَذابِ الآخرةِ، فإنِ استَخفُّوا بما حلَّ بالأُمَمِ قبْلَهم أو أُمهِلوا، فأُخِّرَ عنهم العذابُ في الدُّنيا؛ فإنَّ عَذابًا لا مَحيصَ لهم عنه يَنتظِرُهم يومَ القيامةِ حِينَ يَتذكَّرون قسْرًا، فلا يَنفَعُهم التَّذكُّرُ، ويَندَمون وَلاتَ ساعةَ مَندَمٍ .

(كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) أي: ما هكذا ينبغي أن يكونَ الأمرُ؛ فارجِعوا عن انكِبابِكم على الدُّنيا الفانيةِ الَّتي لا يَبقى منها ولا مِن مَتاعِها شَيءٌ؛ فإنَّه إذا وقع دَكُّ الأرضِ يومَ القيامةِ ورَجُّها وزلزلتُها مرَّةً بَعْدَ مرَّةٍ، يَنهَدِمُ كُلُّ ما عليها، وتُصبِحُ أرضًا مُستويةً. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ [الحاقة: 14-15] .

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ﴿22﴾

(وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) أي: وجاء ربُّك -يا محمَّدُ- إلى المحشَرِ لحِسابِ عبادِه والقَضاءِ بيْنَهم مَجيئًا يَليقُ بجلالِه وعَظَمتِه، وجاءت الملائِكةُ صُفوفًا صَفًّا بعدَ صَفٍّ، خاضِعينَ للهِ. موسوعة التفسير

لن تزول قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسأَلَ عن أربعِ خِصالٍ : عن عُمرِه فيما أفناه ، وعن شبابِه فيما أبلاه ، وعن مالِه من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن عِلمِه ماذا عمِل فيه

قال ابنُ كثير: (ذلك بَعْدَما يَستشفِعونَ إليه بسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ على الإطلاقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بعدَما يَسألونَ أُولي العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ واحِدًا بعدَ واحدٍ، فكُلُّهم يقولُ: لستُ بصاحِبِ ذاكم، حتَّى تنتهيَ النَّوبةُ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولُ: «أنا لها، أنا لها». فيذهَبُ فيَشفَعُ عندَ اللهِ في أن يأتيَ لفَصلِ القَضاءِ، فيُشَفِّعُه اللهُ في ذلك [يُنظر: البخاري «7510»، ومسلم «193»]، وهي أوَّلُ الشَّفاعاتِ،

وهي المقامُ المحمودُ... فيجيءُ الرَّبُّ تعالى لفَصلِ القَضاءِ كما يشاءُ، والملائكةُ يَجيئونَ بيْن يدَيه صُفوفًا صُفوفًا). ((تفسير ابن كثير)) (399/8).

كما قال تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ [البقرة: 210].

وقال سُبحانَه: وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [الزمر: 69] .

وقال عزَّ وجلَّ: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا [النبأ: 38].

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ﴿23﴾

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) أي: وجيءَ يومَ القيامةِ بنارِ جَهنَّمَ. موسوعة التفسير

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُؤْتَى بجَهنَّمَ يومَئِذٍ لها سَبْعونَ ألْفَ زِمامٍ ، مع كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها)).

كما قال الله تعالى: إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا [الفرقان: 12] .

(يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) أي: في ذلك اليَومِ يَتذَكَّرُ الإنسانُ عِصيانَه وطُغيانَه، وما فاته مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ؛ فلا تَنفَعُه ذِكْراه، ولا يَنفَعُه الإيمانُ والتَّوبةُ لِمولاه. موسوعة التفسير

كما قال سبحانه وتعالى: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ [الزمر: 56] .

وقال سُبحانَه: يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ [النبأ: 40].

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ ﴿24﴾

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) أي: يَقولُ: يا لَيْتَني قَدَّمْتُ في الدُّنيا أعمالَ الخَيرِ والبِرِّ والطَّاعةِ لحياتي الأبَديَّةِ في الآخِرةِ، فألقَى فيها ثَوابَها. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: دليلٌ على أنَّ الحياةَ الَّتي ينبغي السَّعيُ في أصلِها وكَمالِها، وفي تتميمِ لَذَّاتِها: هي الحياةُ في دارِ القَرارِ؛ فإنَّها دارُ الخُلْدِ والبَقاءِ ، فالحياةُ الحقيقيَّةُ هي حياةُ الآخرةِ، ولذلك يقولُ الكافِرُ يومَ القيامةِ: يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي؛ فالحياةُ الدُّنيا ليست حياةً، ووجْهُ ذلك:

أوَّلًا: لأنَّها مُنَغَّصةٌ؛ فكُلُّ صَفْوِها كَدَرٌ.

وثانيًا: أنَّها غيرُ باقيةٍ.

وثالثًا: أنَّ الإنسانَ مُهَدَّدٌ فيها، فلا يدري متى يجيئُه أَجَلُه صُبحًا أو مساءً، وكم مِن إنسانٍ خَرَجَ مِن أهلِه ولم ترجِعْ إلَّا جُثَّتُه! وكم مِن إنسانٍ على كُرسِيِّه فَجَأَه الموتُ، فلم يُكْمِلِ الكتابةَ الَّتي يَخُطُّها بيَمينِه! ولهذا يقولُ الشَّاعرُ: «لا طِيبَ للعَيشِ ما دامتْ مُنغَّصَةً لَذَّاتُه بذِكارِ الموتِ والهَرَمِ» فمهما طالتْ بك الحياةُ فسوف تَهرَمُ وتَدَعُ هذا العَيشَ الطَّيِّبَ، أو تموتُ فلا تبقى لهذا العَيشِ أصلًا.

كما قال تعالى: حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا [الأنعام: 31] .

وقال سُبحانَه: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا [الفرقان: 27] .

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿25﴾

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ) أي: فيَومَ القيامةِ لا يُعَذِّبُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخِرةِ؛ فلا أحَدَ أشَدُّ عَذابًا منه. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: أنَّه على المسلِمينَ أن يَحذَروا عِقابَ اللهِ، ولا يتعَرَّضوا لسَخَطِ اللهِ الموجِبِ لعِقابِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُعَذِّبُ عَذابَه أحَدٌ، ولا يُوثِقُ وَثاقَه أحَدٌ.

كما قال تعالى: وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [طه: 127] .

وقال سُبحانَه: فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ [الغاشية: 24] .

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿26﴾

(وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) أي: ولا يُوثِقُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ وَثاقِ اللهِ في الآخِرةِ لأهلِ النَّارِ؛ فلا أحَدَ أشَدُّ وَثاقًا منه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [غافر: 71-72] .

وقال تعالى: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا [الإنسان: 4] .

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿27﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: لَمَّا استوعَبَ ما اقتَضاهُ المقامُ مِن الوعيدِ والتَّهديدِ والإنذارِ؛ ختَمَ الكلامَ بالبِشارةِ للمؤمنينَ الَّذين تَذكَّروا بالقرآنِ واتَّبَعوا هَدْيَه، على عادةِ القرآنِ في تَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ والعكسِ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَزيدُ رَغبةَ النَّاسِ في فِعلِ الخَيرِ، ورَهبتَهم مِن أفعالِ الشَّرِّ

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) أي: يُقالُ : يا أيَّتُها النَّفْسُ المطمَئِنَّةُ بالإيمانِ، الموقِنةُ باللهِ وبوَعْدِه، الثَّابِتةُ على الحَقِّ. موسوعة التفسير

قال الزَّمخشري: (أي: يقولُ اللهُ للمُؤمِنِ: يا أيَّتُها النَّفْسُ، إمَّا أن يُكَلِّمَه إكرامًا له... أو على لِسانِ مَلَكٍ).

﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ ﴿28﴾

(ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) أي: ارجِعي إلى اللهِ الَّذي ربَّاك بنِعَمِه وفَضْلِه، راضيةً باللهِ وثَوابِه، مَرْضِيَّةً عندَ اللهِ تعالى. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: أنَّ النَّفْسَ لا تَرْجِعُ إليه سُبحانَه إلَّا إذا كانت مُطمَئِنَّةً، فهناك ترجِعُ إليه، وتَدخُلُ في عبادِه، وتَدخُلُ جنَّتَه.

كما قال تعالى: جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ [البينة: 8] .

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿29﴾ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ ﴿30﴾

(فَادْخُلِي فِي عِبَادِي) (وَادْخُلِي جَنَّتِي) أي: فادخُلِي في جُملةِ عِبادي الصَّالِحِينَ الطَّائِعِينَ وفي زُمْرتِهم، وادْخُلي جَنَّتي معهم. موسوعة التفسير

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ المؤمِنَ إذا كان في انقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا وإقبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهم الشَّمسُ، معهم كَفَنٌ مِن أكفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ الموتِ عليه السَّلامُ حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخرُجي إلى مَغفرةٍ مِنَ اللهِ ورِضوانٍ، فتَخرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيَأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها فيَجعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ وفي ذَلِك الحَنُوطِ، ويَخرُجُ مِنها كأَطيبِ نَفحةِ مِسكٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بِها، فَلا يَمُرُّونَ بها على مَلَإٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَستَفتِحونَ له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنتَهَى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبوا كِتابَ عَبدي في عِلِّيِّينَ، وأعيدُوه إلى الأَرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومِنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى))

كما قال الله تعالى: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا [النساء: 69] .

وقال سُبحانَه وتعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ [العنكبوت: 9] .